قصيدة المساء

بقلم الدكتور : حسن فتح الباب

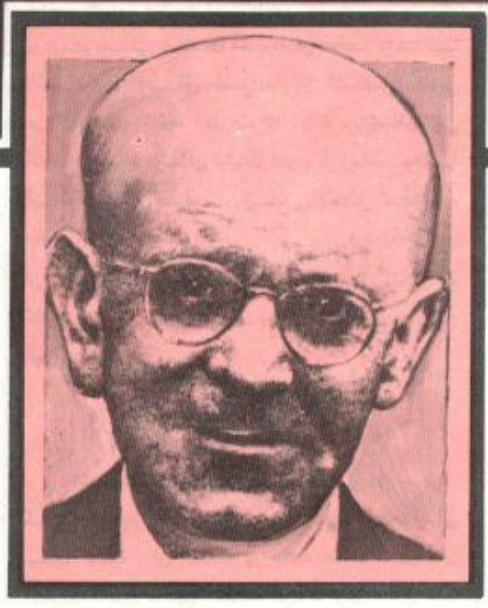

« في هذه القصيدة ، يمد « أبو ماضي » يده للانسان العانى ، المتوجس خيفة مما يأتى به الغد المجهول ، لينتشله من الضياع والاغراق في الأوهام والمخاوف .. انه هنا يدرك رسالة الشاعر الحقيقة ، وهى أن يستخدم فنه في خدمة الانسان . »

● ما أكثر ما غنى الشعراء لليل ، منذ تزحف طلائعه مع المساء ، وتغرب الشمس ، حتى يطلع بنوره الأبيض أول شعاع للفجر . وما أرق وأشجى القصائد التى أو حى بها الى كبارهم الخالدين في وجدان شعوبهم . واذا كان تاريخ هذا الغناء قديما ، قدم الليل في عمر البشرية ،

منذ عرفت الفنون القولية والموسيقية طريقا للتعبير عن مشاعرها خلاله ، عميقا عمق الألم والسرور ، طويلا طول الآه في مواويل المغنين ، فان نصيب الشعراء الرومانسيين في العصور الحديثة كان النصيب الأوفى من سجل ذلك التاريخ . لايختلف في ذلك قوم عن قوم ، وان تباين اللسان ، واختلف الناى الشعرى الذى يعزفون عليه . فليس كمثل التأمل في المساء بين الحلم والواقع ، مفجر للينابيع الشعورية الكامنة ، ومثير لتهويمات الخيال في نفس الشاعر ، المشدود الى الزمن ، والمتجاوز له في آن واحد ، والسابح دائما على أجنحة الرؤى .

على أن شعراء العاطفة والطبيعة الرومانسيين وان أغرقوا فى نوازعهم الذاتية ، وفي الهروب من مشكلات الواقع وقوانينه وصراعاته الاجتماعية ـ قد أثروا وجدان البشرية بفيض من النفحات ، التى تمجد الخير والنقاء والجمال ، وأرهفوا الأذواق والمشاعر بالصور الفنية التى تصقل الطباع وتهذب الغرائز البدائية ، وأفادوا من جاء بعدهم من رواد الفن الواقعى وغيرهم من أصحاب المذاهب الفنية المعاصرة . بل ان من بينهم شعراء الرومانسية الثورية الذين تغنوا بالحرية والعدالة بمعناها المطلق ، وباعتبارها من القيم الانسانية التى لا يختلف جوهرها باختلاف المكان أو الزمان ، دون أن يربطوا بينها وبين حركة التطور التاريخى للمجتمعات ، أو بالأحداث والمشكلات التى يغتلى بها الواقع في رقعة معينة من الأرض أو في حقبة محددة من الزمن .

ومن ثم ، خلد التاريخ الأدبى كثيرا من الأشعار ، التى ألهمها الليل شعراء هذا الاتجاه لما اتسمت به من صدق التعبير عن نفس الانسان الفرد في شجونه وهمومه وأمانيه ، ومن ابداع فنى مازال يخلبنا رغم انقضاء العهد الذى نشأ به ، واستحداث أشكال واساليب ومضامين جديدة من بعده .

وليس منا ، نحن الأدباء المخضرمين ، الذين تفتحت براعم انتاجهم في الأربعينات ، من لم تهزه ، صبيا يافعا ، رومانسى الرؤية قصيدة الشاعر « محمود أبو الوفا » ، الذى رحل عنا أخيرا ، توقعها قيثارة موسيقى ومغن كان كبيرا في جيلنا ، لا لتلقيبه بمطرب الملوك ، وانما لغنائه لفلسطين وللوطن العربي وللحرية :

كلما وجهت عينى
نحو لماح المحيا
لم أجد في الأفق نجما
واحدا يرنو الينا
أترى ياليل أحظى
منك بالعطف عليا
فأغنى واحبيبى
والمنى بين يديا

لكم ملأ هذا الصوت الفضاء حولنا في مناجاته لليل ، وكأنه البليل ينساب شدوه الرقراق مع خيوط القمر الفضى وأطيافه المتموجة : وكم أشعل جوانحنا في الأمسيات الساجيات شوقا ووجدا ، وحبب إلينا الحب نعيمه وعذابه ، والليل سكونه وسهاده .

● وكان سلوانا ، لمن عانى مرارة العيش منا ، وأوتى

مجلة الكويت

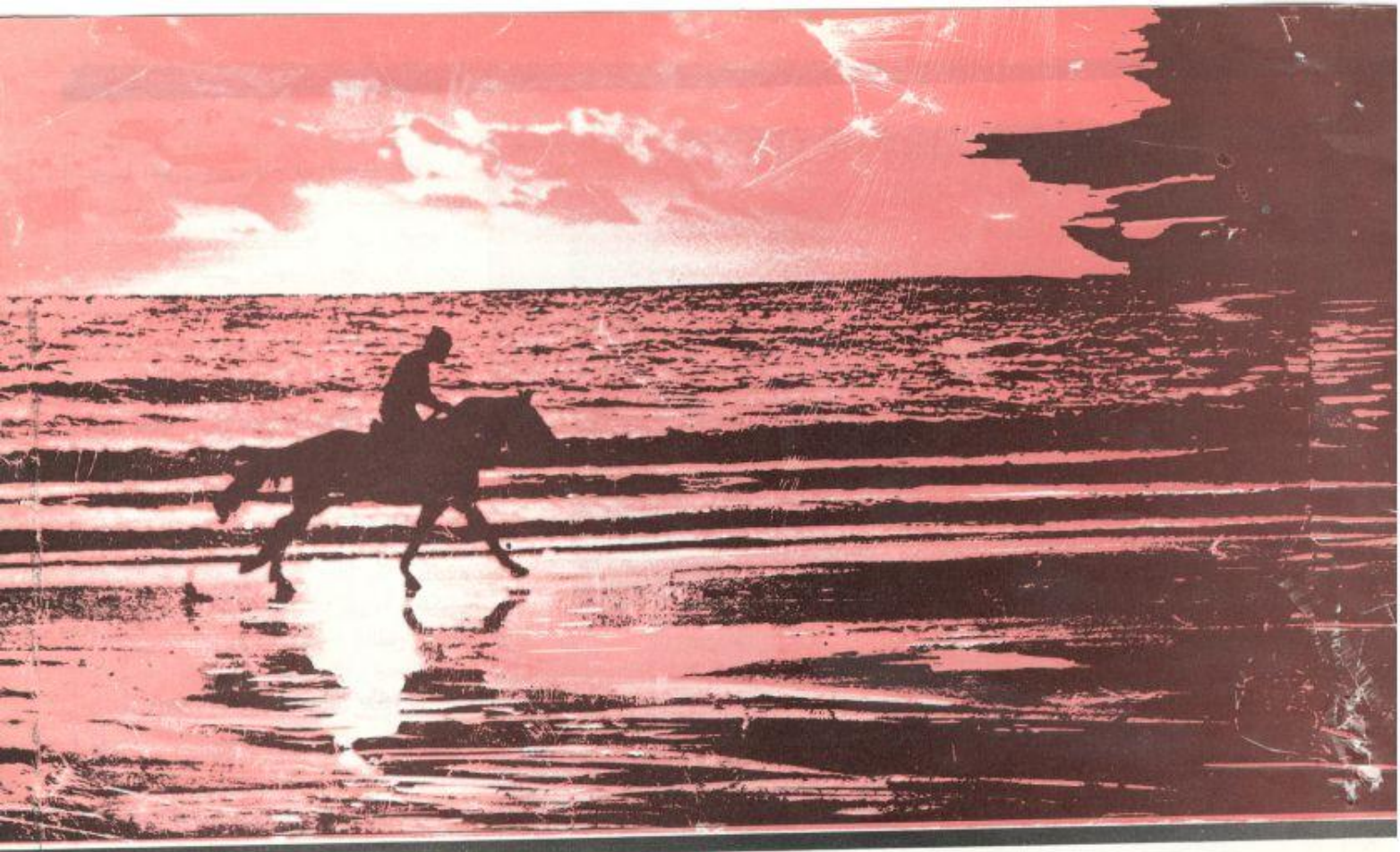

نعمة الصبر والتأمل . أية لمسة من السحر أصاب بها قلوبنا في سنوات المراهقة حسا وفكرا ؟ لكأنما كان ، من عرف الحب الأول منا في ذلك العهد ، يجد ذاته في ذلك الغناء الأثيري ، فيغمغم لأول مرة بالشعر العاطفي الشاجي . وكم كتب الرسائل الساذجة ، من نفذ الى قلبه السهم ، واستعصى عليه الشعر . وأما الذي خانه الكلام فقد شرق بالدمع .

ها نحن مع رؤية الليل لأبي الوفا ، في نغمها العذب القديم نسترجع ذكرى الأمس البعيد ، فنرى أنفسنا مرة أخرى كأنما وقف الزمن الدوار عجلته . كان الغد يومئذ بعيدا بعيدا ، والعمر مديدا ، لأننا ما عرفنا في تلك الليالي والأيام سرعة ايقاع الزمن وكيف يمضي علينا ثم يمضي بنا . وما أشد ما كانت تشجينا الأنفاس المتلاحقة ، وأصابع المحبين المتشابكة ، والأرواح المتعانقة على وقع دقات القلب مع نسمات المساء ، ونحن نشاوى رحيق الفن صافيا في قصيدة « شوقي » الجميلة ، المكتوبة باللغة الشعبية ، في تصوير الليل ومشاعر المحبين وآلام المعذبين تحت خيمته السوداء :

في الليل لما خلا
الا من الشاكى

هنالك عرفنا سحر الليل ، وأدركنا جلال الطبيعة في المساء والسحر ، وكيف يصبح الانسان والكون قلبا واحدا ، كما تعمق احساسنا أيضا وبأحزان الضائعين والغرباء والمظلومين ، حين يسدل الليل عليهم أستاره . بيد أننا لبثنا طويلا ، أسرى الأخيلة المجنحة ، مبهورين بالصدى أكثر من الصوت ، وبالطيف أكثر من الحقيقة ، والفرد أكثر من الجموع .

بين الرومانسيين ومدرسة الاحياء

وتعاقبت حلقات الزمن ، والوجدان يرتوى يوما بعد يوم ، وليلة بعد ليلة ، بمزيد مما نقع عليه من غناء الشعراء بجمال الأمسيات والحنين الذي تثيره الليالي الطوال ، ولوعة العشاق . والذى لم ينشأ في أحضان الريف ، فحرم مثلى صوت اخوتنا وآبائنا عشاق الأرض الطيبة ، مرددا « ياليل ، ياعين » على نغم الأرغول وأنين الساقية والشادوف ، لم يعدم صوت شاعر في المدينة مثل « ابراهيم ناجى » يشوقه بقوله في ليالي الفراق :

الليالي ياما أمر الليالي
غيبت وجهك الجميل الحبيبا
ياحبيبي كان اللقاء غريبا
وافترقنا فصار كل غريبا

و « على محمود طه » ذلك الملاح التائه ، صاحب « الجندول » و « كليوبترا » و « الكرنك » يتغلغل في قلوبنا الغريرة قوله في ليالي السادرين مع الهوى ، وقد استحال أنغاما شجية حرارا ، لا نلتفت الى ولعة وتوقه بمدينة بحرية أجنبية سياحية ، لا يؤمها غير المترفين (فينسيا) ، فإنما هى ذكريات شاعر عن نزواته ، وحسبنا - في ذلك الحين - صور الجمال التي تنبض في القصيدة . ويكفينا أيضا ، أن هذا الفنان الموهوب قدم لنا - حين نودى بمشاركة الشعر في المعركة - قصيدته القومية الرائعة عن فلسطين والتي يقول فيها :

أخى جاوز الظالمون المدى
فحق الجهاد وحق الفدا

ويتداعى شعراء الليالي الرومانسيون العرب . ويتسلم الراية رواد مدرسة الاحياء التي أقام صرحها « محمود سامى البارودى » ، ودعمها من بعده « اسماعيل صبرى » و « أحمد شوقي » و « حافظ ابراهيم » و « خليل مطران » في مصر ، « والزهاوى » و « الرصافي » و « الصافي النجفى » و « الجواهرى » في العراق ، و « بشاره الخورى » الملقب « بالأخطل الصغير » في لبنان ، و « عمر أبو ريشة » في سوريا ، وتبعهم في الجزائر شاعراها الوطنيان « مفدى زكريا » و « محمد العيد خليفة » . واذا بهؤلاء الرواد يحيون سنة آبائهم الكبار - منذ امرىء القيس في نجد ، حتى ابن زيدون في قرطبة - في بث الليل لواعجهم . وعلى لسان قيس بن الملوح يهبنا شوقي في مسرحيته الخالدة (مجنون ليلى) مقطعا من أجمل ما أوحاه الليل الى الشعراء .. أبياتا قليلة في عددها ، ولكنها عميقة فيما كانت تخلفه في جوانحنا من أثر حين نصغى إليها غناء تتجاوب أصداؤه مع هبات الريح الليلية الواهنة الندية ، على شاطىء النيل في صيف القاهرة ، فترطب أنفاسنا الظامئة بشدوها وشجوها :

سجـا الليل حتـى هاج لى الشعـر والهوى
ومـا الليل الا البيد والشعـر والحب
وباتـت خيامـى خطـوة من خيامها
فلـم يشفنـى منهـا جوار ولا قرب
أحـن اذا شطـت وأصبـو إذا دنت
فيا ويح قلبـي كم يحـن وكم يصبو

وإذا كان المدى بعيدا في الشكل والمضمون - بين الملك الضليل ، وبين شوقي فيما صاغا من شعر يناجيان الليل ، فإن هذا المدى ليقصر اذا قارنا ، بين روائع صاحب المسرحيات الشعرية التاريخية ، وقصائد صاحب ولادة بنت المستكفي في هذا الغرض . فمن ذا الذى يلام إذا نسب خطأ ، بيت ابن زيدون الآتى الى شوقي :

إن يكن قد طال ليلى ، فلكم
بـت أشـكو قصر الليل معك

من قصيدته العذبة الرقيقة التي مطلعها :

ودع الصـب محـب ودعك
ذائـع من سره ما استودعك

والتي عارضها شوقي بقصيدة استهلها بقوله :

ردت الـروح على المضنـى معك
أحسـن الأيام يوم أرجعك

لقد كان من تأثر مدرسة البعث الشعـرى أن استخلصت لنا ما كادت يد النسيان أو الاهمال تطويه - في عصور الانحطاط الأدبي أيام العثمانيين والمماليك - من تراثنا الشعرى العريق . وقد حققت هدفها بوسائل شتى ، منها طبع مختارات من ذلك التراث كما فعـل البارودى ، ومنها معارضة كثير من شعرائها لقصائد رأوها من عيون فن العربية الأول . وكان شوقي أبرزهم في هذا المضمار . وقصائده في معارضة « ابن زيدون » « والحصرى » و « البوصيرى » من الشواهد الدالة على ذلك . وبعد الشعر الذي خلفه أسلافنا في عصور ازدهاره مما صاغوا في وصف الليل وأشجان المحبين فيه ، نموذجا يستحق الدراسة ، لتبيان مدى تأثر شعرائنا المحدثين بهم .

ثم جاءت مدرسة الديوان

وتتحقق لشعرنا العربي الحديث طفرة أخرى تمنحه نفسا جديدا على يد مدرسة الديوان التي أنشأها الشعراء النقاد الثلاثة : العقاد والمازنى وعبد الرحمن شكرى ، بما أوتوا من معرفة بالأدب الانجليزى ، اذ يغنون انتاجهم بأفكاره وصور ورؤى مقتبسه من ذلك الأدب الـذي استوعبـوه ، ولا سيا قصائد الشعـراء الرومـانسيين : « شيللى » و« كيتس » و « بيرون » و « ورد زورث » . فلا عجب أن يصدر العقاد ديوانا كاملا بعنوان (هدية الكروان) مستوحيا كثيرا من معـانيه وأخيلتـه ، من

على محمود طه

هؤلاء الشعـراء الانجليز ، ولا سيا « جون كتيس » في قصيدته الشهيرة (أغنية الى العندليب) التي تتضمن أحاسيس هذا الشاعر الملهم في الليل حين يرهف سمعه إلى صداح ذلك الطائر الغريد . وقد حدا ذلك ببعض الأدباء والنقاد والمعارضين ، أو المنافسين للعقاد ، الى أن نعوا عليه ذلك الاقتباس أو الاستلهام ، مما أثار معارك أدبية مدوية الأصداء ، ولكنها أحسنت الى مركز الأدب والنقد أكثر مما أساءت اليها ، رغم ما أثارت من غبار كثيف ، لما شاب بعضها من مهاترات .

والليل » و « صوت الكروان » كانا وحيا لقصة من أجمل الأعمال الأدبية الحديثة ، وهى (دعاء الكروان) لطه حسين . وقد أهداها الى العقـاد صاحب (هـدية الكروان) وأعلنه أميرا للشعـراء . وكان ذلك من باب الثناء ، وان كان الرجلان كبيرين في عالـم الأدب في زمانهما ، ومن الشوامخ الـذين لا يقـدح في مكانتهـم وفضلهم الصغار ، ومن ثم كانـا غنيين عن مثـل هذه الألقاب الجوفاء . وتنثال على الخاطر أبيات من تأملات الشعراء الانجليز في الليل ، طالما رددناها في صبانا الباكر منذ اطلعنا عليها في كتاب (الكنز الذهبي) الذي كان يضم قصائد منتخبـة من الشعـر الانجليزى في مختلف العصور ، وما زال هذا الكتاب القيم يعاد طبعه حتى الآن . وكنت قد قرأت من قبل ، الترجمات العربية التي نقلـت إلينـا نمـاذج من الأدب الانجليزى ، والأدب الفرنسى ، وغيرهما على صفحات مجلتى مجلتـى الرسالـة « والرواية » اللتين كان يصدرهما المرحوم الأديب الكبير أحمد حسن الزيات منذ الأربعينـات وكذلك الترجمـات التي نشرها العقاد والمازنى في كتبهما ، مما فتح لنا آفاقاً رحيبة ، وأسهم في تنمية مواهبنا الأدبية . غير أن دراستى الشعـر الأجنبـي في مصـادره الأصيلـة بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، في العام الوحيد الذي أمضيته بها قبل انصرافي الى دراسة القانون ، عجل بتلك التنمية وجعلها على أساس علمى منظم .

لقد أسقطت دوامة العيش وأحداث الخريف الكثير من أوراق الذاكرة ، بيد أن الشجرة القديمة ما زالت تحتفظ بغصون خضراء تحمل زهـورا في شكل قصائـد « للامرتين » « وفيكتـور هيجـو » و « شكسبـير » و « شعراء البحيرة » ، جنبا الى جنب مع كثير من أشعار « ابن الرومى » و« النواسى » و« المتنبي » و« المعرى » و « الشريف الرضى » ، ناضرة ندية ، كأنما لم تمض عليها عشرات السنين ، أو كأنما لم يكفها أنها تغلغلت في النفس حتى أصبحت من مكونات الفكر والشعـور . وهكذا يعيش في القلب شعر الأمسيات والليالي ، بعد رحيل أصحابهـا بعشرات أو مئـات السنـين . وتحتفـظ الذاكرة بالفريد دو موسيه في لياليه ، وشيللى في قصيدته « الى الليل » ، وكولنز في قصيدته (الى المساء) ، وورد ذورث في قصيدته (الى نجمة المساء) . فلقد تسامت بها الروح وذاب فيها الوجدان في زهرة العمـر كما يذهـب الصوفي في أوراده .

بين قصيدة « المساء » وصاحبها

وظلت منزلة المأثورات عندى ، لا تدانيها منزلـة ، من حيث عبقرية التعبير عن أصداء الليل في نفوس مبدعيهـا ، ومـا يطلقـه سكونـه السرمـدى من عنـان ذكرياتهم ، وما يثيره من مواجدهم في السراء والضراء ، على اختلاف منابتهـم وبيئاتهـم وثقافاتهـم ، ومـن ثم مفهومهم للحياة والموت وللنفس والوجود والمصير ، وان كانوا جميعا - فيما عدا شكسبير - ينتمـون الى المدرسـة الرومـانتيكية أو الابتـداعية التـي خلفـت المدرسـة الكلاسيكية أو الابتاعية . ظلت منزلة تلك الأشعار في الذروة لدى ، حتـى كان مسـاء قدر لى فيه - في ذلك العهد البعيد - أن تقع تحت عينـى قصيدة « المسـاء » للشاعر اللبناني المهجرى المجـدد « إليا أبـي ماضى » . فكأنى وقعت على كنز مجهول . وما زلت - من روعـة المفاجأة المسعدة - أذكر تاريخ الكشف وميقاته ، وكيف انتبذت بالقصيدة مكانا قصيا ، لأخلو بها إلى نفسي ، هنـالك في ظل مبنـى ساعـة جامعـة القاهـرة العتيدة - وكانت تسمـى جامعـة فؤاد الأول - تلك الساعة التي ما انفكت دقاتها الرتيبة المتتابعة القديمة تخفق في محراب الزمن الذي مضى ولن يعود وان بقى حيا في حنايا الشعور .

تلك ذكرى لقائى بأبـى ماضى في (المسـاء) ، قيصدته التي بقيت في ذاكرة النفس منذ ذلك الحين ، والتي ما ان صافحت القلب قبل العين حتـى خلبت الروح ، وأدركت أننى أمام شاعر عربي يطاول عمالقة الشعر الرومانسي الغربي . فسارعت الى المكتبات باحثا عن أشعاره ، هو ورفاقه من أدباء المهاجر في الأمريكتين

لأستقي من معين هذا النبع الجديد . ولم يكن ناقدنا الكبير المرحوم « محمد مندور » قد أخرج بعد كتابه (الشعر المهموس) عن هذه المدرسة الناشئة في حركة تطور شعرنا العربي الحديث . وهأنذا أعود الى (المساء) ، بعد أن قطعت شوطا طويلا من مسيرتي . فأجدني من خلالها في نشوة المشاعر الأولى ، وأجدها ما زالت على بكارتها وسحرها ، بعد أن فتحت أمامها ثغرة في جدار الأحداث المتراكمة ، وحاولت أن أنفض عني الانغلاق في أسر المذاهب الفنية والفكرية ، فقرأتها بروح متحررة ، روح قارىء أديب لا تشده إلا انسانيته التي تصل بينه وبين غمار البشر حين يتخففون من أعبائهم .

فما هو سر السحر الذي يكمن في ثنايا هذه القصيدة ؟ ومن قبل ، من هو مبدعها ؟ ان المؤرخين لسيرة حياة شاعرنا (١٩٠١ ـ ١٩٧٥ م) يبدأونها منذ رحل الى مصر في شبابه فأقام في الاسكندرية حيث تعاطى التجارة ، فاتخذ حانوتا لبيع الدخان فيها مع عمه ، وأخذ يشغل أوقات فراغه بالمطالعة والدرس ليلا ، تارة على نفسه ، وتارة في بعض الكتاتيب ، كما روى في زيارته لبنان سنة ١٩٤٨ ضمن حديث (لمجلة الحياة) اللبنانية . ولبث أبو ماضي في مقامه بالديار المصرية أحد عشر عاما ، قضاها على شاطىء عروس البحر الأبيض . وهنالك ، في تلك المدينة الشاعرية الساحرة ذات التاريخ العريق ، كتب ونشر ديوانا من الشعر باسم (تذكار الماضي) في مايو ١٩١١ لم يقيض له ذيوع الذكر ، ولولا مقالة كتبها عنه الأستاذ (أنطون الجميل) رئيس تحرير (الأهرام) فيما بعد في مجلة (الزهور) التي كان يصدرها ، لما عرف أحد عن هذا الديوان شيئا . ذلك أن « ايليا » لم ينشر له شعر من قبل ، فيما عدا أبياتا نشرتها له جريدة (العلم) اليومية التي أصدرها « اسماعيل مظهر » و« محمد فريد » في ٧ مارس ١٩١٠ لتكون لسانا للحزب الوطني . ومن ثم عاش الشاعر مغمورا في الاسكندرية لا يعرفه إلا قلة من أدبائها . ولما ظهر ديوانه (لم تهتم الصحف والمجلات ، حتى ذات الأصل الشامي منها ، بالتنويه به أو التعليق عليه ، بل لم تشر اليه مجلة (المقتطف) إلا بسطر واحد تشكر فيه المؤلف على اهدائه ديوانه لها . وكذلك صنعت مجلة (الهلال) . وربما كان ذلك هو الذي دعاه الى أن يقول في ذلك الحين :

بعيشك ، هل جزيت عن القوافي
بغير « أجدت » أو « لاقض فوكا » ؟
كلام ليس يغني عنك شيئا
إذا لم يقتل الآمال فيكا

ولقد سجل « ايليا أبو ماضي » صفحة أخلاقية وقومية وضيئة ، أضافها إلى تاريخه الأدبي الحافل بالروائع الفنية ، وذلك أثناء مقامه في الاسكندرية ، بما اتخذه من مواقف مؤيدة للحرية والأحرار ، زاهدا في المال

الذي تجلبه مسايرة الباطل ، أو الشهرة التي لا تنال إلا على جسر من النفاق . « فقد عاش في الأحياء الشعبية بالاسكندرية عيشة أبناء البلد ، يشعر بشعورهم ، ويحس باحساسهم . فبينما كانت ميول الغالبية من مواطنيه الشوام وقتئذ تتجه الى التآلف وتعمل على تنمية الروابط الاجتماعية الخاصة بهم ، كان هو أكثر اندماجا بأهل الاسكندرية ، يتحدث عنهم في شعره ، ويدفع عنهم أسهم خصومهم .

ويكفي أن نذكر في صدد تجاوبه مع وطنه الثاني مصر وزعمائها المناضلين ضد الاستعمار ، أن (كلمة الاهداء) في ديوانه المشار إليه كانت موجهة الى الأمة المصرية ، وأنه انضم الى الجماهير العريضة من المواطنين ، ولم يشايع وجهة نظر الطائفة الشامية بمصر لما حكمت المحكمة بسجن (الشيخ عبد العزيز جاويش) بسبب مقاله عن ذكرى دنشواى) ، لذا نشر في جريدة اللواء ـ التي كان يصدرها الزعيم الوطني مصطفى كامل ـ قصيدة تفيض بتقدير الشيخ ، وجعل عنوانها (إلى بطل الوطنية) . كما كتب قصيدة وهو المسيحي الديانة في رثاء الامام الشيخ محمد عبده . ورثى من بعده مصطفى كامل ، وهاجم أغنياء الطائفة التي ينتمي اليها شيبا وشبانا ممن كانوا خارجين على التقاليد القومية أو على المروءة ولغتها ، على الرغم من أن مقاليد التجارة والصحافة ، بل المناصب في الاسكندرية كانت بأيديهم .

تلك مواقف شاعر وانسان عربي كبير ، يغضب ويرضى في سبيل الحق ولو كره المغرضون . فلا غرو أن يناهضه القوم فينغصوا عليه حياته الهادئة الصافية في البلدة الطيبة الجميلة ، فيزمع مغادرتها على غير ما يحب ، فلو خير لما اختار غيرها طوال العمر موطنا ، وهي مهبط وحيه ومسرح ذكرياته . ولا شك أن بعض أسباب الصفاء والجمال اللذين يشعان شفافية في شعر « أبي ماضي » من أثر الاسكندرية ، التي طالما ألهمت الأدباء والفنانين من شتى الجنسيات . وهكذا يحمل شاعرنا عصا الترحال ميمما وجهه شطر العالم الجديد في أواخر سنة ١٩١١ ، وقد صدق في شأنه قول شاعرنا القديم :

وفي الأرض منـأى للكريم عن الأذى
وفيهـا لمن خاف القلى متحول

وهناك على مدى عشرات الآلاف من الأميال بعيدا عن مسقط رأسه في جبل لبنان ، وعن وطنه الروحي في

العاصمة الثانية لمصر العربية ، يتابع « ايليا أبو ماضى » رحلة العيش ، ومغامرة الشعر التي كرس لها حياته . ويعوضه ما لقى من نجاح ، بعض ما عانى من جحود ونكران . فقد بزغ نجمه في عالم المهجر ، وغذا رائد ذهب جديد في الشعر تجاوبت أصداؤه في المشرق العربي . وكان أول ما جنيت من قطاف حديقته في عام ١٩٤٢ ثمرة (المساء) . وإنى لأعود اليها اليوم ، وأتأملها في ضوء رؤيتى الخاصة للشعر بعد أن أصبت من تطور ، فلا أجد عطاءها قد نقص كثيرا أو اختلف إلا قليلا وفقا لمفهومى عن طبيعة الشعر الغنائى الرومانسي في عصره ، وما أداه من دور كبير في تطور الأدب الانساني الى أفق أكثر رحابة ، وأعماق أكثر صفاء .

الأصالة وعمق الانسانية

إن سحر هذه القصيدة لا ينبع من ارتباطى العاطفى بها بحكم قراءتها والتأثر بها في ربيع الحياة ، وإنما يكمن سحرها في ذاتها . فها هى ذى تهزنى اليوم من الأعماق كما هزتنى بالأمس . لقد تغيرت أفكارى وانتقلت ـ شعراً وفكرا ـ من مرحلة الرومانسية الفردية الى الرومانسية الثورية وأخيرا إلى مرحلة الواقعية الاشتراكية ، بيد أن ذلك التطور لم يغير من رؤيتى لتلك القصيدة ، كما حدث بالنسبة الى قصائد أخرى . إذا أتساءل عن سر هذا الاختلاف ، أجد الجواب في النزعة الانسانية العميقة التي تتمثل فيها . فهى ليست تعبيرا عن حالة شعورية طارئة يستقل بها الشاعر فلا يحركنا الا التعاطف المؤقت معه والاستماع بما قدم من قيم جمالية في الأداء . بل هى تعبير عن (نفس تلتقى فيها جميع الأنفس) ، على حد تعبير ابن الرومي في احدى قصائده ، ومن ثم يحس فيها كل قارىء بنفسه كأنما هو صاحبها .

وهى لا تحقق هذا الاحساس فقط ، بل تزيد متلقيها عراقة في انسانيته كما يقول المازنى في وصف الشعر الحقيقي ، فيصفى من خلالها نفسه من أدرانها ، ويعمق شعوره بأجمل ما في الحياة وأسمى ما في الانسان . وتلك هى الأصالة في العمل الفني أن يزيدنا شعورا وفهما بالكون ، وبالمجتمع ، وبأنفسنا ، ونفورا من القبح في كافة أشكاله ومعانيه ، وتطلعا الى الحق والعدل والجمال . وبذلك تصبح كلمة الشاعر في تأثيرها قريبة من الفعل ، إن لم تصل الى مستواه .

وآية هذه الأصالة أن قصيدة « المساء » جاءت خلوا من الصور الضبابية والشطحات الفكرية ، التى تعرفها في كثير من الشعر الرومانسى الذى يتخذ الليل محورا لتأملاته وصوره ، أو يتخذ غير ذلك من الموجودات . ومع ذلك ، فانها تثير خيال القارىء ، وتسبح به في آفاق بعيدة ، ولكنها قريبة من تصوراته وليست بعيدة عن

أفكاره ومشاعره . فالصور الكآبية التي استخدمها « أبو ماضى » للتعبير عن مخاوف الليل وأوهامه في نفس الصبية ، والصور المشرقة التي جاء بها للبهجة والأمل . كلها مستقاة من الواقع بلا اعتساف ولا غموض . وذلك هو الابداع :أن يبلغ الفنان غايته من طريق استيحاء الواقع لا البعد عنه . فالحياة أكثر غنى بصورها ومعانيها من الأساطير والتخيلات ، لمن يستطيع أن يحس بهذا الغنى ويكشف عنه . وقليل من يستطيع ذلك . ذلك أن من اليسير الخوض في عوالم الخيال والرؤى الخرافية ، ولكن الصعب هو استلهام حركة الحياة والأحياء في تدافعها المستمر ، وايثار الجانب المشرق الذى يساعد الانسان في رحلته الشاقة عبر الصراع الأبدى ، ويدعم فيه الأمل والثقة في قدرته على مغالبة الأزمات .

ومازال هناك تصور خاطىء صنعه بعض النقاد ، وكان من شأنه اغراء الناشئة من الشعراء بالاغراب والالغاز في الشكل وفي المضمون ، لاثبات طول باعهم في الفن ومطاولة الكبار ، بمقولة هؤلاء النقاد ان الصور المستمدة من الواقع والميسورة التركيب تهبط بفن الشعر . ذلك أن غنى الصورة أو شدة تأثيرها ليس مرجعها الى المصدر ، وانما الى قدرة الشاعر الفنية . ومن الثابت أن الأدب الخالد هو الذى استمد مادته من لحم الواقع ، اذا صح التعبير . أما الأوهام فلا تخلف الا أدبا قد يبهر ، ولكن تأثيره موقوت ، لأنه غير مرتبط بالحياة والأحياء .

ولا تختلف المقولة السابقة في فسادها عما ساد حينا لدى بعض النقاد القدامى من أن أعذب الشعر أكذبه ، مما أدى الى المبالغات السقيمة والألاعيب التى تشبه لمعات البرق أو الصواريخ النارية ، رغم أن هذا الكذب لم يكن يقصد به أسلافنا تلك المبالغات ، بل كانوا يقصدون القدرة على التعبير بالمعنى المبتكر ، والصورة المؤثرة القادرة على تحويل مشاعر القارىء وذهنه ، حتى لا يسقط في شراك الملل من جراء ترديد للمعانى والصور التقليدية . وكذلك كان هذا الفهم الخاطىء بدوره جناية أخرى على الشعر والنقد قديما وحديثا ، جناية أفزعت شاعرا من أكبر شعراء العربية هو « على بن الرومى » فصرخ فيمن نعى عليه خلو قصيدته ، التى مدح بها أحد الأمراء ، من المحسنات البديعية التى تنطوى على صور بيانية مموهة مزخرفة ، واعتمادها على التصوير البسيط ، ولكنه المحكم المستمد من الطبيعة والواقع :

قولا لمن عاب شعر مادحه
أما ترى كيف ركب الشجر
ركبت فيه اللحاء والخشب
اليابس والشوك بينها النمر
وكان أولى بأن يشذب
ما يخلق رب الأرباب لا البشر

ولقد بلغ الأمر في الدعوة الى الغموض ، الى الحد الذى أصبح فيه نقاد كبار وهبوا رهافة الحس وعمق الفكر ، وأفنوا عمرهم في المطالعة والمتابعة عاجزين عن فهم كثير مما طبعته المطبعة العربية في الأونة الأخيرة ، من غرائب الشعر المنسوب الى شباب كانوا واعدين ثم أصبحوا أسرى تلك الفكرة الثابتة الخاطئة التى أشرنا اليها ، فأساءوا الى أنفسهم كما أساءوا الى الشعر الجديد مذ أصبح انتاجهم ـ على ذيوع أسماء بعضهم ـ حجة لرافضى هذا الشعر . لقد أصبح لهؤلاء الشعراء لغة خاصة لا يعرفها غيرهم ، وهم لا يدركون أن الاغراب لا يحقق لهم الرغبة في أن يكون لهم عالمهم المتميز فكرا وشعورا . فلكل شاعر أصيل عالمه ، ولكن له أيضا قدرته على كشف هذا العالم لنا . فاذا لم يستطع ، فان مرد ذلك الى افتقاده هذا العالم ، أو الى غرضه في نفسه ، والا لاستطاع أن يوصله الينا ، فالفن افصاح في المقام الأول ، بل ان الرمز يعد أداة افصاح .

والقصيدة التى نقدمها (لأبى ماضى) أبلغ شاهد على التخليط الذى وقع فيه أصحاب هذه الموجة الزائفة . فهى رؤية جديدة للمساء تختلف ـ كما يستبين من مقارنتها بالنماذج التى نوهنا بها ـ عما ألفناه من التأملات التى تدور حولها قصائد الرومانسيين العرب والأجانب في معظم الأفكار والرؤى والمشاعر التى تناولتها . وهى رغم قصرها ـ اذا قيست بقصائد ألفريد دو موسيه وكيتس وشيللى ـ غنية بعطائها . ويتبين مدى تفرد هذه القصيدة بوجوها الانسانى الذى يشد اليه كل قارىء ، اذا لاحظنا أن الكثرة الغالبة من قصائد المساء أو الليل هى قصائد عشاق مهجورين ، أو حزانى مقهورين ، أو فنانين متشائمين ، أو مفكرين خياليين ، وأفضل هؤلاء الشعراء جميعا ، من لم تشغله مأساته الخاصة عن تأمل الطبيعة والانسان .

■■